الفصل السابع

البناء الطبقى والوعى الاجتماعى (١)

فى الصفحات الأولى من كتاب « التـــاريخ والوعى الطبقى »(٢) صـــاغ لوكاتش Lukäcs رؤية متميزة للماركسية على النحو التالى : « لا تخرج (النظرية الماركسية) عن كونها تعبيرا بالفكر عن العملية الثورية نفسها » ·ولقد أعاد لوكاتش صياغةهذه الفكرة المحورية بصور مختلفة عبر

---

(١) اعيـــد نشره من المصـــدر التالى :
Istvan Mészàros (ed.) **Aspects of History and Class Consciousness** (London, 1971).

(٢) نشرت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب عام ١٩٢٣ تحت عنوان Geschichte Und Klassenbewusstsein ويحتوى الكتاب على ثمانيـــة مقالات نشر بعضـــها قبل هـذا التاريخ فى صـــورة تختلف قليلا عن الصورة التى ظهرت بها فى الكتاب · ولقـد اتهم الممثلون الرسميون للماركسية الكتاب ، بعد نشره مباشرة ، بانه تحريفى revisionist وذو اتجاه اصلاحى reformist ومثالى idealist . ولقـد جاء هـذا النقد بصفة خاصة من بوخارين BuKharin وزينوفيف Zinoviev فى المؤتمر الخامس للدولية الشيوعية المنعقد فى عام ١٩٢٤ · ولقـد تفضل لوكاتش نفســه فى بدايـة الثلاثينات من كتابه هـذا ، ولم ينشر الكتاب بعـد ذلك الا فى عام ١٩٦٨ بعـد خمسين عاماً تقريبا من ظهور المقالات المبكرة فيه · واحتوت الطبعة الجديدة على تصدير ـ مؤرخ فى مارس ١٩٦٧ ـ ناقش فيـه لوكاتش بعض التغيرات التى طرأت على أعمـاله واعـاد فحص بعض الأفكار التى كان قـد صاغها فى بداية العشرينات بروح نقـدية · وسـوف اشير الى اعادة التقييم النقـدى الذى اجراه لوكاتش خلال المناقشة الموجودة فى هـــذا الفصـــل · وحسبنا هنا أن نقول أنه بالرغم من التفسير الذى اضـافه لوكاتش الى جانب مناقشـات أخـرى ، فما يزال غير واضح بشكل تام لمـاذا أدان المـاركسيون الرسميون الكتاب بشـــدة ، خاصـــة وان لوكاتش قـد عبر عن فكـرة الـدور المسيطر للحـزب الشيوعى بطريقـة تتفق تماماً مع اللينينية والستالينية · ولذلك فانه من الأهمية بمكان ، وقـد أصبح كتاب لوكاتش متاحاً مرة أخرى ، ان نعيد النظر فى التاريخ الفكرى للماركسية فى العقد الذى تلا الحرب العالمية الأولى ، حيث تمت مراجعة الكثير من افكارها فى اطار الثورة الروسية وغيرها من الحركات الثـــورية ·

صفحات الكتاب · وعلى سبيل المثال فقد شخص المادية التاريخية فى أحد مقالات الكتاب على أنها « الوعى الذاتى للمجتمع الرأسمالى » ، وذهب فى مكان آخر ـ وفى اطار تحليله لنظرية المعرفة فى الفلسفة البرجوازية ـ الى أن المشكلات التى تظهر من الفصل بين الذات والموضوع ، يمكن حلها فقط عندما يبدو كيان تاريخى بمثابة ذات وموضوع فى نفس الوقت ؛ بحيث يعبر بالفكر (كذات) عن الممارسة التاريخية (كموضوع) · والبروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى هى التى تمثل هذا الكيان التاريخى الحاوى للذات والموضوع ·

ومنذ البداية فان التصور الذى قدمه لوكاتش للماركسية يثير بعض المصاعب · فقد ذهب الى أن الماركسية ما هى الا تعبير بالفكر عن العملية الثورية ؛ غير أن النظرية الماركسية نفسها هى التى تخبرنا بأن هـذه العملية موجودة بالفعل ، محددة خصائصها · واذا حاولنا صياغة المشكلة بطريقة أخرى : فان الماركسية تعتبر الى حد ما نظرية لايديولوجيات الطبقة ، ورغم ذلك فانها تعتبر (أو أنها تفهم على هذا النحو) ايديولوجية طبقة ؛ ومن ثم فان صدقها أو أهميتها كايديولوجية يعتمد بشكل ما على صدقها كنظرية · ولقد أدرك لوكاتش ـ وناقش ذلك باختصار ـ الصعوبة التى تظهر من حقيقة أن المادية التاريخية يجب أن تطبق على نفسها(*) ؛ وكان حله لهذه الصعوبة هو أن الماركسية تعد صادقة فى اطار شكل اجتماعى معين من اشكال الانتاج ، هو الشكل الرأسمالى الحديث ، وهو بهذا يقر بوجود نوع من النسبية المقيدة qualified relativism (٣) · غير أن لوكاتش لم يستفض فى هذا الجانب من المشكلة التى تعد أهم ما اثير فى اعماله من مشكلات ؛ بمعنى أنه اذا كانت الماركسية تفهم على أنها شكل من أشكال الوعى الطبقى ، فان ذلك يتضمن مسبقا النتيجة التى توصلت اليها كنظرية ـ والتى تفيد بأن الطبقات والصراع الطبقى والوعى الطبقى موجودة كقوى تاريخية اساسية · ويستند كتاب لوكاتش على

(*) بمعنى فهم ظهور المادية التاريخية من خلال منهج المادية التاريخية نفسه ، او بمعنى آخر تطبيق المنهج المادى التاريخى على نشأة المادية التاريخية كنسق من الأفكار · المترجم

(٣) Lukãcs, **Op. cit,** (French trans). P. 263.

هذا الافتراض المسبق الامر الذى أضفى على المناقشة طابعا خاصا ، فهى ليست مناقشة نظرية أو امبيريقية وانما هى مناقشـــة ايديولوجية خالصة ، بمعنى أنها تهتم بالاسلوب الذى يجب أن تفهم به الماركسية لكى تكون أداة فعالة فى ايدى البروليتاريا الثورية ٠

ولسنا هنا بصدد دراسة الملامح العامة لتفسير لوكاتش للماركسية، وانما نود أن نلقى الضوء على تحليله للوعى الطبقى(٤) ٠ ومع ذلك فانه مادام لوكاتش قد عرض منهجه فى كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » ، ومادام هذا المنهج يرتبط ارتباطا خاصا بفكرة الوعى الطبقى ، فانه سوف لا يكون بمقدورنا تجنب بعض الانطباعات العـامة حـــول فهم لوكاتش للمنهج الماركسى ، أو لما أسماه « بالماركسية المتزمتة » ٠

تتبع اوكاتش فى مقال « الوعى الطبقى » التطور التاريخى للطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى ، ولاحظ بصفة خاصة الفروق العامة بين ظاهرة الطبقة كما تظهر فى هذا الشكل من المجتمعات والظواهر المشابهة فى أشكال أخرى للمجتمع سبقت هذا الشكل الرأسمالى ٠ ومن خلال تتبع المؤشرات التى عرضهـا ماركس ـ خاصـة فى كتـابه « فقر الفلسفة » وجزء من كتابه « الايديولوجية الالمانية » حيث ذهب الى أن الطبقة تعتبر بمعنى معين من اختراع البرجوازية ـ أكـــد لوكاتش على خاصيتين : الأولى أن الطبقة تتجلى فى المجتمع الرأسمالى فى صورة قومية أكثر من كونهـــا رابطة اقليمية ؛ والثانية أن الطبقتين الرئيسيين فى المجتمـــع الرأسمالى ـ البرجوازية والبروليتاريا ـ همـــا طبقتان « خالصتان » "Pure" Classes من حيث أن طابعهمـا الاقتصـــادى ومصالحهمـا تتضح بجلاء ولا تختلط بأى أنواع أخرى من العلاقات ، ونظر لوكاتش الى هذه الخصائص ـ مقتفيا أثر ماركس أيضا ـ على أنها شىء مرغوب فيه

---

(٤) من بين المقالات التى اشتمل عليها الكتاب « التاريخ والوعى الطبقى » هناك أربعة مقالات تعتبر أكثر أهمية بالنسبة للمناقشة التى نعرضها هنا ، وهى : « ما هى المـاركسية المتزمتة » (مارس ١٩١٩) ؛ « الوعى الطبقى » (مارس ١٩٢٠) ؛ « التحول المـادى والوعى البروليتارى » (١٩٢٣) ٠

مرحليا من أجل تطور وعى الطبقة العاملة ، ولكن الشىء الجدير بالاعتبار هو أن لوكاتش لم يتقدم عما جاء به ماركس بالفعل ، سواء فيما يتعلق بتتبع تاريخ حركات الطبقة العاملة منذ وقت ماركس ، أو فيما يتعلق بدراسة بعض الصعوبات التى تقف أمام نمو وعى الطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى دراسة تاريخية ، فضلا عن المصاعب الكامنة فى تفسير طابع هذا الوعى ومساره ٠

فمن المشكلات التى لم يعالجها لوكاتش ، التناقض بين كل من موقف البرجوازية وموقف البروليتاريا ٠ فمن الواضح أن ماركس قد أسس نموذجه فى تطور الطبقات والوعى الطبقى على ظهور البرجوازية فى المجتمع الاقطاعى ؛ على أن هناك فروقا هامة بين هذه العملية والتطور اللاحق للطبقة العاملة ٠ فالبرجوازية الناشئة داخل المجتمع الاقطاعى تعتبر طبقة ثالثة ، وليست هى الطبقة التى تمارس الاستغلال بشكل مباشر ، وقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بنمط الانتاج الجديد القائم على تكنولوجيا جديدة ٠ أما موقف البروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى فهو قريب الشبه بموقف الفلاحين فى المجتمع الاقطاعى ، فالطبقة العاملة الصناعية ، مثلها مثل الفلاحين فى المجتمع الاقطاعى ، لا ترتبط ارتباطا واضحا بشكل انتاجى جديد اكثر تقدما ٠ فهى تخضع لنسق انتاجى قائم بالفعل وهو يحدد مصيرها ٠ ولقد عبر ماركس ذات مرة بشكل مجازى عن الفرق بين الاقطاع والرأسمالية على النحو التالى : « تعطيك الورشة اليدوية مؤشرا على مجتمع به سيد اقطاعى ، أما الورشة البخارية فانها تعطيك مؤشرا على مجتمع به رأسمالى صناعى » ٠ وبناء عليه يمكن صياغة المشكلة التى نثيرها هنا بطريقة مبسطة من خلال السؤال التالى : ما هى نوعية الورشة التى تنتج المجتمع اللاطبقى أو المجتمع الاشتراكى ؟ ومن أجل التوصل الى اجابة على هذا السؤال من الضرورى أن نبحث ــ على المستويين البنائى والتاريخى ــ دور الطبقة العاملة فى تطوير تكنولوجيا جديدة أيا كان نوعها تؤدى الى خلق المجتمع الجديد فى المستقبل ؛ أو أن نثير القضية بشكل مختلف تماما بالقول بأن الطبقة العاملة تمتلك قدرا من الحرية لم تكن تمتلكه أى من الطبقات السابقة ،

منها أنها قادرة على الدخول بوعى فى نضال مستقل من أجل تحقيق النمط الجديد من المجتمع دون أن تكون حاملة لأى قوى تكنولوجية جديدة(٥) ٠

ومن المشكلات الأخرى التى لم يهتم بها لوكاتش مشكلة ترتبط ارتباطا مباشرا بموضوع الوعى الطبقى ٠ فبينما يصدق القول بأن ظروف المجتمع الرأسمالى تسمح بسرعة بتشكل الطبقات على مستوى قومى(٦) وتسمح بظهور المصالح الاقتصادية بشكل واضح(٧) ، فان بعض العوامل الأخرى داخل نفس ظروف المجتمع الرأسمالى ربما تحول دون تكوين طبقات جديدة، ومن تطمس طابع العلاقات الاقتصادية ٠ فالحراك الجغرافى والاجتماعى ،

---

(٥) ترتبط هذه المشكلة ارتباطا واضحاً بمشكلات فى نظرية ماركس عن الثورة الاجتماعية ، فى انطباق تلك الأخيرة على حالة بعينها من الرأسمالية ٠ فالنظرية تقرر بشكل عام أن النسق الاجتماعى يخبر ثورة عندما تتطور قوى جديدة للانتاج (تمثلها طبقة معينة) لا يمكن احتواؤها داخل النسق الموجود بالفعل ، ولكن يبدو أن ماركس يؤكد فى حالة الرأسمالية على الانهيار الداخلى الناتج من عدم اتسامها بالاستقرار الداخلى ٠ ومن ثم فان ثورة الطبقة العاملة سوف لا تؤسس على تقدم التكنولوجيا ، ولكن على التوترات التى تنتجها الأزمة الاقتصادية ، وتراكم الفقر ، وقبول البروليتاريا عن وعى لمذهب أو لمذاهب تصيغ لهم نموذجا مثاليا جديدا ٠

(٦) « لا تقع الثمرة الحقيقية لمعارك هذه الطبقات فى النتائج السريعة ، وانما فى الاتحاد المستمر للعمال ٠ وقد اتسع نطاق هذا الاتحاد من خلال تطور وسائل الاتصال التى خلقتها الصناعة الحديثة ، والتى مكنت العمال الذين ينتمون الى مناطق مختلفة من الاتصال ببعضهم ٠ ويحتاج العمال الى هذا النوع من الاتصال بحيث نضفى الصفة القومية على الصراعات المحلية العديدة بحيث تتجمع فى النهاية فى صراع قومى واحد بين الطبقات ٠٠٠ ولم يكن بامكان الـ brughers الذين عاشوا فى العصور الوسطى ـ حيث كانت طرق المواصلات سيئة ـ أن يحققوا هذا الاتحاد الا فى قرون ، أما البروليتاريا الحديثة فانها تستطيع تحقيقه فى سنين قليلة وذلك بفضل التقدم فى طرق المواصلات » ٠ هكذا كتب ماركس فى **البيان الشيوعى** ٠

(٧) كتب ماركس فى المخطوطات الاقتصادية والفلسفية يقول :

« من الحتمى ٠٠٠ أن تدخل ملكية الأرض ، وهى أساس الملكية الخاصة ، دخولا كاملا فى نطاق الملكية الخاصة **وتصبح سلعة** ، وأن تتحول القاعدة التى تحكم حيازة الملكية الى قاعدة صريحة للملكية الخاصة ، وأن ينفصل رأس المال عن كل الارتباطات السياسية ، وأن تصبح العلاقة بين حائز الملكية والعامل علاقة اقتصادية محضة أحد طرفيها هو الطرف المستغل (بكس الغين) والآخر هو الطرف المستغل (بفتح الغين) ، وأن تختفى كل العلاقات الشخصية بين حائز الملكية وملكيته ، وأن تصبح تلك الأخيرة ثروة مادية خالصة ، وأن يحل الارتباط بالمصلحة محل الارتباط المقدس بالأرض ، وتصل الأرض والانسان نفسه الى مستوى يصبحان فيه موضوعا للمضاربة » ٠

والتعقد المستمر فى تقسيم العمل ، واتساع نطاق الطبقات الوسطى ، كل هذه العوامل قد أثرت على امكانية تشكل الطبقة العاملة فى تجمع سياسى على وعى متميز بمكانها فى المجتمع وبأهدافها طويلة المدى · وعلى نفس المنوال ، فان طبيعة الانتاج الرأسمالى قد تطمس حقيقة الاستغلال ، بالرغم من أنها (طبيعة الانتاج الرأسمالى) تعمل على تباين المصالح الاقتصادية · فلا يمكن للعبد أو القن أن يشك مطلقا فى أنه يعمل بشكل كلى أو جزئى من أجل مصلحة شخص آخر ؛ ولكن العامل الأجير لا يمكن أن يستوعب بشكل مباشر أن آخرين يتملكون عمله (قيمة عمله) · والمحقق أن الهدف الذى توخاه ماركس فى « **رأس المال** » كان ينحصر فى اختراق حجاب الانتاج السلعى والتبادل من أجل توضيح العلاقات الاجتماعية الحقيقية التى تجعل انتاج فائض القيمة ممكنا · غير أن هذا الاطار النظرى ـ الذى يحدد العلاقات بين الطبقات فى العملية الانتاجية ـ يختلف عن التطور التاريخى الفعلى للوعى الاجتماعى لدى طبقات بعينها · ولهذا فمن الأهمية بمكان دراسة التطور الفعلى (للوعى الطبقى) وربط نتائج هذه الدراسة بالتحليل الاقتصادى الأصيل وذلك من أجل التوصل الى ما اذا كان النموذج النظرى كافيا أم غير كاف · ولقد فشل لوكاتش فى أن يفعل ذلك ، واستبدل ـ بدلا من ذلك ـ التاريخ الفعلى بالتاريخ النظرى أو التأملى ·

وهناك مجموعة ثالثة من المشكلات ترتبط من ناحية بالمواقع الاجتماعية المختلفة للبرجوازية والبروليتاريا ، وترتبط من ناحية أخرى بمسألة تشكل الوعى الطبقى ، تتعلق بالعلاقة بين الفكر والواقع · فلقد كان المفكرون الذين ساعدوا فى تشكل وعى البرجوازية ، وعبروا عن النظرة البرجوازية فى مذاهب اجتماعية واراء عامة ، كان هؤلاء المفكرون ينتمون الى الطبقة البرجوازية ذاتها ؛ ولذلك فلسنا هنا بحاجة الى أن نفترض وجود هوة كبيرة بين شكل من اشكال النشاط الاجتماعى وتجلى هذا النشاط فى الفكر · ولكن الأمر يختلف فى حالة البروليتاريا حيث تشكل وعيها الطبقى وتم التعبير عنه ـ كما هو الحال فى الماركسية مثلا ـ من خلال مفكرين لا ينتمون الى طبقة البروليتاريا ولكن ينتمون الى طبقة

البرجوازية ؛ وهنا تظهر مشكلة جوهرية تتعلق بالعلاقة بين الحيـــاة الواقعية للطبقة العاملة وتفسير هذه الحياة فى المذاهب الاشتراكية ٠

ولقد تناولت أحد مقالات كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » هـــذه المشكلة ٠ فقد كتب لوكاتش فى المقال الخاص « بالماركسية المتزمتة » ، كتب يقول : « ليس هناك من يقدم للبروليتاريا كطبقة بشكل سريع وطبيعى معرفة بموقفها الفعلى واهدافها (ولا يقدم لكل فرد بروليتارى على حده الا معرفة أقل) ؛ واستمر لوكاتش فى مقال آخر عن « الوعى الطبقى » ليفـرق بين « الوعى الطبقى السيكولوجى » بمعنى الـوعى المباشـــر immediate الذى يمتلكه العمـــال عن موقفهم فى المجتمـع (والـذى وصـــفه لوكاتش أيضـــا بالوعى الـزائف) ؛ « والـــوعى الممكن » Possible Consciousness أو الوعى المكتسب imputed consciousness ويكشف النص التالى عن رأى لوكاتش فى هذا الصدد :

« لا يقتصر معنى فكرة الوعى الطبقى على ما يفكر فيه الافـــراد ويشعرون به ويرغبون فى تحقيقه فى مواقف تاريخية وطبقية ٠ حقيقة أن هذا يعد ذا أهمية **كمادة خام** للدراسات التاريخية ٠ ولكن اذا ربطناه بالاطـار الكـلى totality فاننا نتوصل الى مقوله الممكن الموضوعى objective Possibility ؛ بمعنى الأفـــكار والمشـــاعر **التى كـان** الأفراد سيفكرون فيها ويشعرون بها لو أنهم كانوا قادرين على استيعاب موقفهم ومصالحهم بشكل كامل ٠ وسوف يشكل رد الفعل هذا المكتسب والرشيد الوعى الطبقى » ٠

ويتفق هـذا الخط الفـكرى فى بعض جوانبه مع افكار ماركس عن تطور وعى الطبقة العاملة من مرحلة الافعال المشتتة المنعزلة من أجـــل المحافظة على مستويات الاجور الى مرحلة التنظيم السياسى والنضـــال السياسى الذى يتم على مستوى قومى ٠ ولكن تظهر هنا فروق هامة (بين رأى كل من ماركس ولوكاتش) اذا ما أخذنا فى اعتبارنا العلاقة القائمة بين المرحلة المبكرة والمرحلة اللاحقة (من تطور الوعى) والطريقة التى

يتم بها الانتقال من مرحلة الى أخرى · فالحقق أن لوكاتش لم ينظر الى المسألة فى ضوء التطور التاريخى للوعى بقدر ما نظر اليها فى ضـــوء التفرقة المطلقة بين الوعى السيكولوجى والوعى المكتسب الرشـــيد · فالأول هو الوعى الفعلى للطبقة العاملة والذى وصفه لوكاتش بأنه المادة الخام للدراسات التاريخية(٨) وهو ظاهرة ليس لهـــا أى تأثيرات ذات أهمية ، كمـــا أنهـــا لا تصلح لأى شـــكل من أشكال الاختبار للمذاهب التاريخية · ومن الناحية الأخرى فان الوعى المكتسب الرشـــيد للطبقة العاملة هو ــ عند لوكاتش ــ الماركسية نفسها ؛ بمعنى نظرية اجتماعية ظهرت واستقرت بالفعل وتم تقديمها الى البروليتاريا من الخارج · ولقد أعاد لوكاتش تأكيد هذه الفكرة بشكل أوضح فى التصدير الذى كتبه لطبعة ١٩٦٧ من كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » ، حيث ربط تمييزه بين الوعى الســـيكولوجى والوعى المكتسب بالتمييز الذى اقامه لينين Lenin بين « وعى نقابات العمال » وهو الوعى الذى تستطيع الطبقة العـــاملة أن تكتسبه بنفسها ، « والوعى الاشتراكى » وهـــو الوعى الذى يقدمه المفكرون الثوريون الى هذه الطبقة · **والحزب** هو التنظيم الذى تتقـــابل فيه الطبقة العاملة · ذات الوعى المتخلف بالمثقفين ؛ غير أن هذا اللقـــاء هو لقاء من جانب واحد ، ذلك لأن الحزب يجسد أولا وقبل كل شىء نظرية صحيحة عن العالم ، وبناء عليه فان المفكرين الايديولوجيين هم الذين يسيطرون عليه · ولقد عبر لوكاتش عن هذه الفكرة عندما أشـــار الى الوعى الطبقى الصحيح للبروليتاريا وشكله التنظيمى ، كمـــا يتمثل فى الحزب الشيوعى ·

غير انه ينبغى أن يكون واضحا فى أذهاننـــا أن هـــذه التصورات تختلف اختلافا كبيرا عن فكرة الوعى الطبقى التى أشار اليها ماركس فى كتابات متفرقة · فقد قرر ماركس بوضوح تام أن الطبقة العاملة سوف تحقق ، من خلال مجهوداتها وخبراتها ، وعيا متطورا بموقفهـــا الطبقى

---

(٨) لا يعـد معنى هـذه الصياغة واضحاً بشـــكل جلى ، ولكن يبدو أنها تعنى أن الوعى الفعلى للطبقة العاملة فى موقف تاريخى ذو أهمية فقط كمادة للمقارنة بالوعى الرشـــيد الذى كان يجب أن يظهر فى نفس الموقف التاريخى ·

وأهدافها · والواقع أنه اعتبر ـ قبل أن يجرى دراساته أن هذه العملية قد تقدمت الى حد ما ، فى شكل حركات اشتراكية متعددة · ولقد لاحظ ماركسى فى كتابه « فقر الفلسفة » أن :

« الظروف الاقتصادية قد حولت جماهير الأفراد الى عمال · لقد شكلت سيطرة رأس المال الموقف العام والمصالح العامة لهذه الطبقة · وهكذا فان جماهير العمال تكون فى علاقتها برأس المال طبقة بالفعل ، ولكنها لم تصل بعد الى طبقة لذاتها Class for itself · وتستطيع هذه الطبقة ـ من خلال النضال أوضحنا فقط جوانب قليلة منه ـ أن تتحد وتشكل طبقة لذاتها · ويحدث هذا عندما تصبح المصالح التى تدافع عنها هذه الطبقة مصالح طبقية » ·

وأكد ماركس مرة أخرى وفى أحد كتاباته المؤخرة ـ فى تصديره « لاستقصاء حالة العمال » ـ على أن العمال فقط هم القادرون على أن يشخصوا « وبمعرفة كاملة الشرور التى يعانون منها » وهم « فقط ـ وليس أولو المعرفة الملهمين ـ القادرون على أن يضعوا موضع التنفيذ علاجا للامراض التى يعانون منها » · فطبقا لما ذهب اليه ماركس ، فان الطبقة العاملة قادرة على أن تصبح طبقة لذاتها ، وأن تأخذ بزمام المسئولية فيما يتعلق بمصيرها · ولم يتحدث ماركسى عن الدور الذى يمكن أن يلعبه المثقفون والحركات والأحزاب السياسية فى هذه العملية ، ولكن يبدو واضحا أن دورهم يخضع للتطور العام للطبقة العاملة · وفى مقابل ذلك وعلى نقيضه ، أخضع لوكاتش الطبقة العاملة « للوعى الرشيد » الذى يقدمه لها المفكرون الايديولوجيون فى الحزب ، وهو بهذا يقدم تبريرا فكريا للديكتاتورية المطلقة للحزب والتى استمت بها المجتمعات ذات الطراز السوفيتى منذ عام ١٩١٧ ·

وتنبثق النتائج التى توصل اليها لوكاتش من مفهومه الخاص عن المنهج الماركسى · فمن أهم التأثيرات التى حددت اتجاهه ونتائجه تعريفه المبدئى للماركسية بأنها وعى طبقى ، وليست نظرية ترتبط بعلاقة قوية بالنظرية الاجتماعية للطبقة التى تهتم بها اساسا · وفيما يختص بالمنهج

فان لوكاتش لا يتبع الأسس التى يحددها قدر انحرافه عنها · فقد أكد فى مقاله عن « الماركسية المتزمتة » فكرتين منهجيتين : **فكرة مرونة المفاهيم** Fluidity of Concepts (وقد تناول هذه الفكرة باختصار وفقا لنفس خطوط المناقشة التى قدمها انجلز فى كتاب Anti - Dühring) ، وفكرة الكلية totality والتى يعنى بها « تكامل حقائق الحياة الاجتماعية (كمكونات لتطور تاريخى) فى وحدة كلية » يوجد داخلها تأثير متبادل · ويمكن أن يثار هنا سؤال عما اذا كانت هاتان الفكرتان تتميزان عن الماركسية(٩) ؛ غير أنه من الأهمية بمكان من أجل استجلاء النقطة التى نحن بصددها أن نلاحظ أن لوكاتش لم يسر وفقا للقواعد المنهجية التى حددها على طول الخط · واذا أخذنا مثالا لذلك نجد أن تحليله للفروق بين الطبقات فى المجتمع الرأسمالى وفى أشكال أخرى من المجتمعات يؤدى ـ كما قال ـ الى « تنميط للوعى الطبقى » (متأثرا فى ذلك كما هو واضح بفكرة النمط المثالى عند ماكسى فيبر) ، ويعنى ذلك أنه يؤدى الى صياغة لانماط من الوعى **فى حد ذاتها** على قدر من التحدد النسبى · وبهذه الطريقة فانه لا يتناول مطلقا كلا من الطبقة العاملة ووعى هذه الطبقة كعنصرين فى عملية تاريخية ، ولا يربط ـ على خلاف ماركس ـ هذين العنصرين بالتطور المستمر للعمل البشرى والاشكال التى ينتظم فيها ·

وعلى نفس المنوال ، فانه بالرغم من تأكيده على فكرة مرونة المفاهيم ، فان الاتجاه الفعلى لكتابات لوكاتش يميل الى تجميد هذه المفاهيم ، وتحويل مفهومات مثل الطبقة والوعى الطبقى وحتى الماركسية نفسها الى كيانات مطلقة وثابتة · ولقد اتضح هذا الاتجاه بصورة مذهلة عند لوكاتش فى مناقشته الأولية للمنهج الماركسى حيث ذهب الى القول بأنه : « حتى اذا

---

(٩) فى اعتقادى أن فكر ماركس يتميز بمضمونه ـ أى بقضاياه النظرية دون منهجه · وقد لاحظ ليفى ستراوش جانباً من هذه الفكرة فى نقده لسارتر فى الفصل الختامى من كتابه « العقل البدائى » The Savage Mind حيث كتب يقول « من الممن أن ينظرا بعض المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس الى ضرورة رؤية الأشياء بصوره كلية على أنه شىء جديد · غير أن الانثروبولوجيين قد اعتبروها شيئا بديهيا منذ أن تعلموها من مالينوفسكى » ·

كان المرء قد افترض ــ دون أن يقبل ذلك ــ أن البحث الحديث قد أوضح الغموض الفعلى لكل القضايا الخاصة بماركس ، فان الماركسى المتزمت يمكن أن يقبل كل هذه المكتشفات الجديدة وأن يرفض كل القضايا الماركسية دون أن يجبر بأى شكل الى ادانه تزمت الماركسية · فالماركسية المتزمتة لا تعنى قبول نتائج البحوث الماركسية بلا تحفظ ···· وانما تعنى المنهج الماركسى برمته » ·

والواقع اننا نجد صعوبة فى فهم هذا النص من جوانب عديدة ، وأنه لمدهش حقا أن يكرره لوكاتش ــ دون أدنى تحفظ ــ فى تصديره لطبعة عام ١٩٦٧ من كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » · هل يعنى هذا النص ــ مثلا ــ أن الذى يرفض نظرية ماركس عن الطبقة والصراع الطبقى سيظل ــ مع ذلك ــ ماركسيا ؟ أم أنه يمكن الاجابة على هذا السؤال بالقول بأن فكرة الطبقة تعد جزءا من المنهج الماركسى ، وأن التفاصيل الخاصة بالعلاقات الطبقية فى مواقف بعينها هى التى تدخل تحت مجموعة القضايا التى يسمح لوكاتش برفضها ؟ وبصفة عامة ، ما هو معنى القول بأن التزمت الماركسى يتبدى فى قبول منهج ماركس ، حتى ولو ترتب على هذا تبنى قضايا زائفة ؟ وتكمن أهمية هذه الأسئلة ــ واسئلة أخرى يمكن اشتقاقها منها ــ فى كونها تكشف مرونة فكرتى المنهج والنظرية ، والصعوبة المرتبطة بفصل العناصر المنهجية عن العناصر النظرية فى أى مركب من مركبات الفكر · غير أن لوكاتش قد أقام ــ وبدون ادراك لهذه المرونة ــ فصلا مطلقا بين النظرية والمنهج وهى تفرقة تبدو لنا غير منطقية ، سواء كان المرء ماركسيا أم غير ماركسى ·

وهناك زاوية أخرى يمكن من خلالها النظر الى كتاب لوكاتش وهى زاوية تكشف عن الطابع الايديولوجى السائد فى الكتاب وتساعد على تفسيره · فكتاب لوكاتش يعد أكثر المحاولات التى تعرضت للماركسية التزاما بروح العصر ، بمعنى أنه مشحون بالأفكار والاهتمامات التى تتعلق بمكان تاريخى معين وزمان تاريخى معين · حقيقة أنه يمكن القول بأن كل مظاهر الفكر الاجتماعى تحمل بصمات العصر الذى ظهرت فيه ،

ومع ذلك تبقى هناك بعض الفروق : فبعض الانساق الفكرية (وكذلك بعض الأعمال الفنية) لها طابع عالمى وبريق عالمى · فمما لا شك فيه أن فكر ماركس يهتم بالتأثيرات التى تركتها الرأسمالية الصناعية المبكرة والثورة الفرنسية ، غير أنه من الواضح أنه لا يرتبط بظروف عصر ماركس فقط ، فهو يقدم الى جانب تفسير العالم (الرأسمالى) الحديث مفاهيم ونظريات عامة أبعد ما تكون عن أن تكون قد فقدت قيمتها وأهميتها اليوم ·

ومع ذلك فان كتاب لوكاتش يعبر ـ من خلال فهم معين للماركسية والبروليتاريا ـ عن طابع فترة تاريخية بعينها · فقد كتب المقالات التى يشتمل عليها الكتاب عندما كانت الحركات الثورية تجتاح كل أرجاء أوربا ، فقد كانت الثورة الروسية حققت نجاحا ، وتبعها نضالات ثورية فى ألمانيا والنمسا ، وظهور نظام ثورى لفترة من الوقت فى المجر شارك فيه لوكاتش نفسه · وبناء على ذلك ، فان كتاب لوكاتش يقدم ـ من خلال وسط فكرى معين لتفسير الماركسية ـ صورة للحركة الثورية والحزب الشيوعى مشبعة بالمثالية ؛ وذلك فى مقابل رؤية نقدية لنفس الظواهر كما فهمها آخرون من أمثال روزا لوكسمبرج Rosa Luxemborg · وفى ضوء حقيقة عدم وجود صراعات ثورية حادة فى بعض البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وفشل الثورات فى مناطق أخرى ، وتحول الثورات فى البلدان التى نجحت فيها الى ديكتاتورية وليس الى نظام اشتراكى ، فانه من المعقول أن نجد قدرا أكبر من الصدق فى الصياغات النقدية للنظرية الماركسية ، وأن نعتبر عمل لوكاتش انعكاسا لمزاج متقلب وتوجيه محدود · وقد صاغ لوكاتش فى الكثير من نصوص تصدير طبعة ١٩٦٧ حكما يشابه هذا الحكم على الأفكار التى جاءت فى كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » · فقد لاحظ ـ مثلا ـ أن نظريته تعبر عن اتجاه طرازى نحو مشكلات العصر الذى ظهرت فيه ، وهى تتعلق بفترة تاريخية ما يزال فيها احتمال قيام الثورة فى أوربا حقيقة واقعة ؛ وفضلا عن ذلك ، فقد ذهب لوكاتش بنفس هذه الروح النقدية الى أن فكرة الممارسة الثورية التى طرحت فى الكتاب هى أقرب الى النزعة اليوتوبية الماسونية Messianic Utopianism التى اتسم بها العصر الذى ظهر فيه الكتاب

أكثر من قربها الى مذهب ماركس نفسه(١٠) ورغم ذلك فان أكثر الاحكام التى اصدرها لوكاتش على كتابه موضوعية يوجد فى انطباعه الذى ابداه فى تصدير طبعة ١٩٦٧ حول ما اســـماه « بالمغموض المنتشر فى الوقت الحاضر والذى يجعل الانسان ينظر الى فكره على أنه ذو مضمون ثابت وأصيل والى منهجه على أنه دائم ومستمر » ٠

وتظهر الهوة التى تفصل بيننا ـ ومعنا لوكاتش ـ وبين الفترة من ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ عندما كتب لوكاتش هذه المقالات ، تظهر هذه الهوة اذا ما تناولنا السؤال الذى ظهر كعنوان للمقال الأول فى كتاب لوكاتش :ماهى الماركسية المتزمته ؟ لايحمل هذا السؤال بالنسبة لنا ـ ولا يمكن أن يحمل ـ معنى فكريا واضحا ٠ فقد ظهرت مئات من تنويعات الماركسية ، كما تظهر مئات الأزهار من برعم واحد ، فمن اذن يستطيع القول بأن أيا من هـذه الصورة المتزمته وأى منها هى الصورة الزائفة ؟ وهل يمكن لأى مفكر جاد أن يهتم بمثل هذا السؤال ؟ فليس هناك من معنى لما نسميه « بالماركسيـة المتزمنة » الا معناها التاريخى ، وهو يشير الى الدوجماطيقية السياسية التى تميز بها زعماء الحزب فىجمهوريات الاتحاد السوفيتى منذ العشرينات وحتى عام ١٩٥٦ ، والتى تدعمت من خلال استخدامهم للبوليس ومنفذى حكم الاعدام ٠ وحتى فى هذا الشكل التاريخى فان أفضل لفظ اطلق على الماركسية هو « الماركسية الرسمية » ٠

ونود فيمـا تبقى من هـــذا الفصـــل أن ندرس الوعى الطبقى من وجهة نظر مختلفة ، تنبثق عن فكرة بعيدة عن الماركسية ٠ ونقطة البداية هنا تنحصر فى قضية منهجية عامة ، هى أن الماركسية يجب اعتبارها بادىء ذى بدء نظرية عن المجتمع ، وليست ايديولوجية ٠ ومن ثم فان وظيفـــة الماركسية هى تفسير الوعى الطبقى وليس التعبير عنه تعبيرا كامـــلا ٠ ولا يعنى هذا أن أنكار حقيقة أن الماركسية (مثلها مثل أى نظرية اجتماعية) لها جانب ايديولوجى ، بمعنى أنها تطورت فى ظروف تاريخية معينـــة ،

---

(١٠) وهى أقرب أيضا الى النزعة اليوتوبية الماسونية التى ازدهرت فى بعض الدوائر فى الوقت الحاضر ، ولا شك ان ذلك يفسر الى حـد ما اعادة الاهتمام الآن بكتاب لوكاتش ٠

وعبرت عن تفضيلات والتزامات ظهرت خارج نطاق العلم الاجتماعى ، وحددت أشكالا من السلوك الموجهة نحو تحقيق غايات مرغوب فيهـــا · ولكن بامكاننا أن نفصل بين الجانب النظرى والجانب الايديولوجى ، بل يجب أن ننظر اليهما على أنهما منفصلان · فأقل أشكال الماركسية قيمة على الاطلاق هو ذلك الشكل الذى يتداخل فيه هذان الجانبان ، كما هو الحال فى فكرة لوكاتش عن الماركسية بأنها لا تعدو أن تكون وعيا متطورا للبروليتاريا ، فمثل هذه الفكرة تجعل اختبار النظرية (التى من المفترض أن تكون صادقة ، على الأقل لفترة تاريخية معينة) مستحيلا ، هذا فضلا عن أنه بالامكان اثبات عدم وجود اتفاق كامل من الناحية التاريخية بين وعى الطبقة ونظرية اجتماعية بعينها · ويمكن توضيح هذه النقطة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا تطور الوعى الطبقى للبرجوازية · فلم يتم التعبير عن هذا الوعى بطريقة كاملة وشاملة فى أى نظرية واحدة ، ولكنه اتخـذ صورا عديدة فى أزمان مختلفة واماكن مختلفة ؛ وهكذا يمكن القول بأن الايديولوجية البرجوازية توجد فى النظرية السياسية لهوبز ولوك ، وفى الفلسفة النفعية ، وفى أعمال الكتاب الموسوعيين ، وفى الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ، أو فى الاخلاق البروتستنتية · فالحقق أن هناك مجموعة من الافكار ــ عن الملكية والعمل والحكومة والطبيعة البشرية ··· الخ ــ ليست متناغمة تناغمـــا كاملا ، ولا تتجمع فى نظرية معينة ، وهى التى تشكل النظرة البرجوازية ؛ ولا تتضح هذه النظرة الا اذا صيغت فى نمط مثـــالى ideal - type يمكن مقارنته بالمواقف التاريخية الفعلية · وينسحب نفس هذا القول على تطور وعى الطبقة العاملة · فقد ظهـرت هنا أيضا مجموعة من الافكار المتشابهة عن العمل والاستغلال والمساواة والتعاون من خلال نظريات اجتماعية مختلفة من الماركسية وحتى الفوضوية؛ ومن الضرورى أيضا صياغة نمط مثالى عن نظرة الطبقة العاملة ، يمكن مقارنتها بالتطور الفعلى لوعى الطبقة العاملة فى المجتمعات المختلفة فى فترات مختلفة ·

ولا نقصد بصياغة النمط المثالى ومقارنته بالظواهر الواقعية للوعى الطبقى تأكيد وجود هوه ــ كما هو الحال عنـــد لوكاتش ــ بين الوعى

الطبقى السيكولوجى والوعى الطبقى الصحيح (أى الماركسية) ، والذى يجب أن ينقله المفكرون الايديولوجيون الى العمال • وانما نقصد بصياغة النمط المثالى وصف ـ وان أمكن تفسير ـ مظاهر الاختلاف بين النمط المثالى والواقع ، ثم اعادة صياغة ـ اذا ثبت وجود خلاف ـ الانماط المثالية وبالتالى النظرية التى تستخدم فيها هذه الانماط وذلك من أجل فهم أفضل للواقع • ويمكن فهم تصورات ماركسى عن البرجوازية كطبقة حاكمة والبروليتاريا كطبقة ثورية بهذه الطريقة • ولقد تناولت فى مكان آخر(١١) بعض المواقف التى لا تتفق فيها الظروف الاجتماعية مع النمط المثالى للطبقة الحاكمة ، ولذا فلن أتوسع فى هذا الموضوع هنا • واذا ما تفحصنا الآن موقف الطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى فى ضوء وجهة النظر هذه فان علينا أن نفرق بين مسألتين مختلفتين : الأولى تتعلق بالتنوع داخل مجتمعات بعينها والفروق بين هذه المجتمعات ، والأخرى تتعلق بالتغيرات التاريخية التى ظهرت مع تطور الرأسمالية كنسق اجتماعى •

فمن الواضح أن الطرق التى تنظم بها الطبقة العاملة نفسها ووعى هذه الطبقة تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع الى آخر • ففى فرنسا وايطاليا يؤيد قطاع كبير من الطبقة العاملة الحزب الشيوعى ؛ ويعنى هذا أنهم يدعمون حزبا ماركسيا ثوريا له طابع رسمى • أما فى بريطانيا وألمانيا الغربية والدول الاسكندنافية فان نسبة أكبر من الطبقة العاملة ما تزال تؤيد الأحزاب الديموقراطية الاشتراكية أو العمالية التى تتبنى اتجاها اصلاحيا • أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فان الطبقة العاملة ليس لها تنظيم سياسى مميز على مستوى جماهيرى وذلك منذ الحرب العالمية الأولى ، ولم تفرز هذه الطبقة أى مذهب راديكالى أو اشتراكى مميز • وحتى عندما تؤيد أغلبية من الطبقة العاملة حزبا معينا من أحزاب

---

(١١) **Elite and Society** (London , 1964) Chapter 11.

وقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب ـ ضمن كتب أخرى لبوتومور بعنوان : ترجمة الصفوة والمجتمع : دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ •

الطبقة العاملة فى هذه البلاد (خاصة فى بريطانيا حيث توجد رابطة قوية بين عضوية الطبقة والولاء السياسى) فاننا لا نجد حزبا واحدا للطبقة العاملة وانما نجد أحزابا وطوائف يسارية متنوعة ، يحظى كل منها ببعض من تأييد الطبقة العاملة · وفضلا عن ذلك يوجد فى كل البلدان قطاع أساسى من الطبقة العاملة يؤيد الأحزاب الليبرالية أو المحافظة(*) ·

ولهذا فانه عبر فترة طويلة نسبيا من الوقت اتخذ الوعى السياسى للطبقة العاملة صورا متنوعة للتعبير عن نفسه فى كل بلد من هذه البلدان، وفى نفس الوقت اختلف النمط السائد لهذا التعبير اختلافا جوهريا من بلد الى آخر · ومن السهولة بمكان أن نقدم تفسيرا لهذه التنويعات ، غير أنه من الواضح ـ وكما عبر عن ذلك ماركس نفسه عندما كان يناقش مشكلة مشابهة ـ « أننا لن ننجح مطلقا فى فهمها اذا ما اتخذنا من النظرية الفلسفية التاريخية وسيلة لفهمها ، فهى نظرية تتسم أولا وقبل كل شىء بأنها نظرية فوق تاريخية »(١٢) · فليس هناك اذن من أساس تقوم عليه وجهة النظر القائلة بأن الاختلاف فى وعى الطبقة العاملة يرتبط بمراحل فى تطور الرأسمالية حيث يظهر الوعى الثورى المتقدم فى المراحل المتقدمة من الرأسمالية ؛ فالوعى الثورى فشل فشلا ذريعا فى أن يظهر فى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وقد كانتا ـ فى فترتين تاريخيتين مختلفتين ـ

(*) اكد بوتومور فى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » ان للأفكار القومية (التى تعتبر أفكاراً للطبقة الحاكمة) قد وجدت طريقها الى قطاعات عريضة من السكان بينهم الطبقة العاملة ؛ الأمر الذى جعل الاحساس بالمجتمع القومى فى البلدان الأوربية يقيد أو يخفف من حدة الصراعات الطبقية بحيث يمكن القول أن « الرابطة القومية ـ الاجتماعية قد اثبتت أنها أكبر فعالية من رابطة الطبقة فى خلق مجتمع متماسك » · انظر كتابه الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ ·ومن الجدير بالذكر انه لا يمكن التسليم بهذا الرأى طالما أنه لم يرتبط بتحليل دقيق لمستوى الوعى لدى الطبقة العاملة ، ودور البرجوازية فى تشكيل هذا الوعى وتوجيهه وجهة معينة ·
المترجم

(١٢) لقد ارتكب الماركسيون الرسميون ـ ومن بينهم لوكاتش ـ نفس الخطأ الذى حذر ماركس من الوقوع فيه ، فقد أظهروا تحفظا واضحا نحو الانحراف فى دراسات تاريخية مفصلة لهذه الظواهر ، واعتمدوا ـ بدلا من ذلك ـ على تعميمات نابعة من النظرية التاريخية للفلسفية · وهذا هو السبب فى أنهم لم يسهموا فى اثراء فهمنا للطبقات الاجتماعية فى القرن العشرين ·

من اكثر الدول الرأسمالية تقدما · بل يمكن القول ـ على عكس ما يذهب هذا الرأى ـ بأن الوعى الثورى قد ظهر بشدة فى البلدان الرأسمالية المتخلفة والتى ينخفض فيها نصيب الفرد من الدخل القومى(١٣) ·

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات العامة ، فقد عرف كل مجتمع من هذه المجتمعات بعض الظروف الخاصة التى تفاعلت داخله ، ومن ثم ساعدت على خلق ما يمكن أن نسميه « بالاسلوب القومى » national style فى السياسة · وحسبنا هنا أن نشير ـ وبشكل مختصر للغـــاية ـ الى بعض الظروف التى يجب تحليلها بدقة فى أى نظرية سوسيولوجية مقارنة عن تجلى الوعى الطبقى فى المذاهب السياسية ·

ففى فرنسا هناك التأثير الذى تركه تراث ثورى طـــويل ، أما فى ألمانيا والاقطار التى كانت تابعة لامبراطورية هابسبرج فان التوترات قـــد نتجت من جراء الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ؛ وفى بريطانيا فـان الفترة الطويلة من الحكم الامبراطورى المتحالف مع حركة الاصـــلاح الاجتماعى فى الداخل قـد أذكى الاحاسيس المحافظة ، أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقـــد وقفت الانقسامات السـلالية والجغرافية وتراث استرقاق الزنوج وانتشار ايديولوجية المساواة ، وقفت حجر عثرة أمام تبلور الطبقات · ويجب أن نربط هذه الظروف والخصوصيات القومية ، فضلا عن العوامل الاقتصادية التى اشرتاليها ، بالنموذج النظرى الماركسى عن تشكل البروليتاريا الثورية ، اذا كان لنا أن نقدم تقييما نقديا لنظريته عن الطبقة والصراع الطبقى ·

ولكن تقييما نقـــديا من هذا النوع يتطلب أيضا وجوب الاهتمـام بالمجموعة الأخرى من الأسئلة التى أشرنا اليها فيما سبق ؛ ونقصد تلك

---

(١٣) قال بهـذا الراى سيمور مارتن ليبست Lipset فى كتابه « الانسان السياسى » (نيويورك ١٩٥٩) ص ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ وقـد لاحظ الن تورين مؤخرا فى كتابه « مجتمع ما بعـد الصناعة » ص ص ٣٦ ـ ٢٧ « أن حركة الطبقة العاملة ما تزال تحتفظ بتوجيه ثورى خاص فقط فى البلدان التى يتسم المجتمع فيها بالتطور الصناعى غير المتساوق Uneven وبوجود مقاومة نابعة من قوى اجتماعية وثقافية عتيقة كما هو الحال فى فرنســا وايطاليـــا » ··

الأسئلة المتصلة بتطور المجتمع الرأسمالى ككل · فنظرية ماركسى فى الطبقة ليست هيكلا من القضايا منفصلا أو مستقلا عن الواقع : فقد ارتبطت بتحليل بناء الرأسمالية كنسق اجتماعى كلى ، وكذلك الاتجاهات الرئيسية لتطور هذا النسق ، واعتمدت على هذا التحليل اعتمادا جزئيا · وبناء عليه فان التفسير الماركسى للطبقات فى الوقت الحاضر يتطلب دراسة رأسمالية القرن العشرين وفقا للخطوط العاملة لدراسة ماركس غير المكتملة لرأسمالية القرن التاسع عشر ، فضلا عن تحديد اتجاهات التغير الرئيسية لرأسمالية القرن العشرين وفقا لنفس المنظور(١٤) ·

ومن أهم التغيرات التى ظهرت فى عصرنا والتى تميزه عن العصر الذى عاش فيه ماركس نمو الطبقات الوسطى على استحياء ، وتقلص الطبقة العاملة وذلك كنتيجة للتطورات التكنولوجية · ولقد وصلت هذه العملية الى ذروتها فى الولايات المتحدة الامريكية ، حيث فاق عدد العاملين فى مهن الطبقة الوسطى عدد العاملين فى مهن الطبقة العاملة ، وان كانت العملية تحدث بسرعة نسبية فى كل البلدان الرأسمالية · وقد أشار ماركس نفسه الى احتمال حدوث مثل هذا التطور عندما كتب عن « الزيادة المستمرة فى عدد أعضاء الطبقات الوسطى ··· التى تعتمد بكل ثقلها على الطبقة العاملة وتعمل فى نفس الوقت على زيادة قوة الطبقة العليا وأمنها الاجتماعى » · وأكد نفس الشىء بطريقة أكثروضوحا فى نصوص متعددة من كتابه « الأسس Grundrisse»(١٥) الذى قدم فيه تحليلا لتأثيرات الميكنة على النحو التالى :

« تطرأ على أداة العمل ، بعد دخولها فى العملية الرأسماليةللانتاج

---

(١٤) ويجب أن تشتمل الدراسة بصفة عامة على دراسة الاشكال الجديدة من التدرج الاجتماعى والقوة السياسية فى المجتمعات ذات الطراز السوفيتى ، وهى قضايا لن نستفيض فيها هنا ·

(١٥) هذا هو الاسم الذى أعطى للمسودات التى كتبها ماركس فيما بين عامى ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ والتى نشرت كاملة لأول مرة فيما بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ بعنوان : « اسس نقد الاقتصاد السياسى »
Grundrisse der KritiK der Politischen öKonomie (Rohentwurf).

تعديلات متعددة ، تصل فى النهاية الى ظهور الآلة ، أو بمعنى آخر النظام الآلى للماكينات ... التى تدار بحركة آلية أو بقوة ذاتية ... وفى هذه المرحلة تعمل الآلة بنفسها ، وما على العامل الا أن يشرف على حركتها وأن يتأكد من أنها تسير دون عطب ... وفى هذه الظروف لاتصبح عملية الانتاج مسألة عمل ... ويتحول العامل الى مجرد نافلة ... وتصبح عملية الانتاج بمثابة تطبيق تكنولوجى للعلم ... فكلما تطورت الصناعة الواسعة النطاق كلما قل اعتماد عملية خلق الثروة على زيادة وقت العمل وكمية العمل المستخدمة ، وزاد الاعتماد على قوة الآلات ... وفى هذه الظروف يصبح أساس الانتاج والثروة قائما على القوة الانتاجية للانسان بصفة عامة وعلى فهمه للطبيعة وقدرته على السيطرة عليها »(١٦) .

والحقق أن ماركس قد قدم مناقشته لهذه الظواهر فى ضوء اطار تاريخى معين ، وأنه عندما أشار الى تطبيق العلم كأساس جديد لخلق الثروة فانه كان يتحدث بصفة أساسية عن امكانيات المجتمع الرأسمالى التى سوف يتم تحقيقها بشكل كامل فى أحد مراحل تطوره فى المستقبل . ولكن العملية التى تحدث عنها ماركس قد ظهرت بالفعل فى المجتمع الرأسمالى ؛ فقد أصبح استخدام العلم أهم بكثير من العمل الفيزيقى ، وتسبب هذا التغير فى تحويل البناء المهنى الذى أثر بدوره على البناء الطبقى . أما عن الآثار التى تركها هذا التغير وسوف يتركها فى المستقبل على الوعى الاجتماعى فما تزال غير واضحة ، ويعتمد وضوح هذه المسألة على ما اذا كانت الطبقات الوسطى الجديدة ترث ايدولوجية الطبقة العاملة وتحافظ عليها ؛ أو بعبارة أخرى ما هى الايديولوجية التى يمكن أن تسود فى الطبقة الوسطى التى تبتى ايديولوجيات تتراوح بين أشكال معينة من الراديكالية الى الفاشية ؟ أن الوقت الحاضر يكشف عن وجود حركات متناقضة : ففى بعض الاقطار ينشغل قطاع من الطبقة الوسطى بالتهديدات التى يتعرض لها الوضع التقليدى للطبقة الوسطى فى المجتمع ، وبالحاجة الى اعادة ارساء قواعد القانون والنظام (بمعنى

---

(١٦) Ibid., PP. 584 - 93.

كبح مصادر الانشقاق) ، بينما ينشغل قطاع آخر ـ يضم الطلاب وأعضاء المهن الحرفية والتعليمية من الشباب ـ بمحاولة تطوير نظرة أكثر راديكالية ومن الناحية الأخرى فان الوعى الاجتماعى الجديد لايساعد على تقلص الطبقة العاملة بشكلها التقليدى ولكنه يتأثر به ، وخـاصة بتقلص بعض المهن ـ مثل العمل فى مناجم الفحم ـ والتى أدت الى ظهور مجتمعـات سياسية مترابطة ترابطا وثيقا وعلى درجة من الوعى الطبقى ، هـــذه التجمعات التى لعبت دورا رياديا فى الحركة الاشتراكية ، ولكن يظهر هنا أيضا اتجاهات متناقضة · فقد تكون الايديولوجيات (وكذلك سياسة) ـ كما يقال غالبا ـ أحزاب العمل والأحزاب الديموقراطية الاشتراكية ،وحتى الاحزاب الشيوعية فى أوربا الغربية قد أصبحت بالتدريج اصلاحية ، الى الحد الذى يمكن أن يقال معه ان هناك ضربا من ضروب الاجماع السياسى القومى بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار على حد سواء ·

واذا كان الأمر كذلك ، فانه من المعقول أن نفترض أن الايديولوجيات المتغيرة تعكس ـ الى حد ما ـ تقلص الأهمية السياسية للطبقة العاملة · لقد كانت مثل هذه الأفكار رائجة لدى علماء الاجتماع فى الخمسينـات اكثر مما هى عليه الآن ؛ اذ ظهر الآن اتجاه مخالف ، يتمثل فى راديكالية من نوع جديد ظهرت بين شباب العمال والعمال الذين يعملون فى مصانع على درجة عالية من التكنولوجيا ، حيث تجسدت فى المطالبة بمزيـد من المشاركة فى ادارة المشروع ، وتجديد الاهتمام بأفكار عامة كالمشـاركة والديموقراطية الصناعية والضبط العمالى ·

والمهمة الملقاة على علم الاجتماع الماركسى هى أن يدرس التغيرات فى البناء الطبقى ، وأن يضعها داخل السياق الكلى للتغيرات فى نظـام الانتاج (الذى يتضمن بجانب الخصائص التى أشرنا اليها من قبـــل خصائص أخرى كظهور الشركات الدولية العملاقة ، وأن يتناول ـ وفقا للخطوط التى أشرنا اليها ـ التأثيرات التى تركتها هذه التغيرات علىخلق أشكال جديدة للوعى الاجتماعى · واذا كان لنا أن نتناول هـذه المسائل بالدقة المطلوبة فلا بد من أن نأخذ فى اعتبارنا نوعا آخرا من أنواعالتغير

التى طرأت على الرأسمالية الحديثة ، ونعنى تحقيق نمو اقتصادى هائل غير مصحوب بأية أزمات اقتصادية حادة فى العشرين سنة الماضية ،وقد أدى هذا النمو الى تحسن مستمر وملحوظ فى مستوى المعيشة العام ،أما التأثيرات التى تركها هذا التغير على الوعى الاجتماعى فتنحصر فى عنصرين : الأول : أنه قد أدى الى تأكيد وتدعيم فكرة أن المجتمعات الحديثة هى مجتمعات الطبقة الوسطى ، وأن الطبقات الأخرى تقف موقفا هامشيا بالمعنى السياسى والايديولوجى ، وهى فكرة ظهرت مع التحول الى مهن الطبقة الوسطى · والثانى : أنه يظهر النمو الاقتصادى ذاته على أنه ايديولوجية جديدة · فلقد أكد الجدل السياسى فى المجتمعات الرأسمالية الاهتمام المتزايد بمسائل كالتقدم التكنولوجى ، والتحديث والنمو ؛ وطغت هذه المسائل على تلك التى سبقتها والتى كانت تنصب على مظاهر اللامساواة بين الطبقات ، حقيقة أنه يمكن القول بأن أى نظرية تعجز عن أن تلاحق ـ وتعبر عن ـ الاستمرار المطرد فى النمو الاقتصادى ولكن خبرات العشرين سنة الماضة ، فضلا عن الأراء النظرية التى أكدت قدرة النظام الرأسمالى على تجنب الأزمات الاقتصادية الخطيرة ، هذه الخبرات وتلك الآراء قد دفعت قطاعا عريضا من السكان الى الاقتناع بأن النمو الاقتصادى المستمر والتزايد المطرد للرخاء يمثلان توقعا مقبولا وقيمة أساسية ؛ وفى نفس الوقت فان النظرية الماركسية عن « أزمة الرأسمالية » ، والتى تحققت بأقصى صورها فى الصراعات السياسية فى الثلاثينات ، قد أصبحت غير ذات مفعول ·

لقد تبددت مظاهر الغموض الفكرى فى الوقت الحاضر ـ وقد الح اليها لوكاتش ـ فى الظلال التى القيت على بعض الايديولوجيات المستقرة (وخاصة الماركسية) ، وظهور عدد متشابك من المذاهب الفكرية الجديدة، أو الموضات الفكرية الجديدة (كما هو الحال فى حركات الطلاب على سبيل المثال) لاترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات الاجتماعية أو حتى بأى جماعة متميزة يمكن النظر اليها على أنها أداة فعالة فى التغير الاجتماعى وبذلك فقد أصبح فهم الظروف التى تشكل وعيا سياسيا ومن ثم تمييز

اتجاه الأحداث ، يشكل صعوبة بالغة · ولكن يبقى هناك على الأقل شيء واحد على درجة من الوضوح ؛ لقد تجاوزنا الفترة التى كان بامكاننا أن نناقش الوعى الحقيقى للجماعات الاجتماعية فيها ، كما يتبدى فى معتقداتهم وأفعالهم ، كمجرد « وعى سيكولوجى » أو « وعى زائف » يمكن أن يقارن بالوعى الرشيد (العقلانى) المتمثل فى أيديولوجية الحزب الشيوعى ·